الفصل الثالث

فى الولايات المتحدة

إذا كان انتقال د. المسيرى إلى الإسكندرية ليلتحق بجامعتها يمثل بالنسبة له نقلة إلى جو كوزموبوليتانى (عالمى) لا جذور له، يمكن أن يثرى الإنسان ويمكن أن يبتلعه، فلا شك أن سفره للولايات المتحدة الأمريكية كان يمكن أن يعصف به ويتركه أشلاءً، كما حدث للكثيرين.

الثمرة الثالثة والثلاثون...

الصدمة الأولى، مواجهات فكرية

* لا تهتز ثقتك بنفسك

بعد أن تخرجت فى **جامعة الإسكندرية**، حصلت على بعثة للذهاب إلى إنجلترا. وتصادف أن حضر إلى مصر أستاذ للأدب الرومانتيكى الإنجليزى فى جامعة كمبردج وكان صاحب شهرة عالمية، فقدمت له دراسة طَموحة، تحاول أن تغطى تاريخ الأفكار وعلاقتها بتاريخ الحركات الأدبية. قرأ الأستاذ الدراسة، وعندما ذهبت لمقابلته طلب منى أن «أسرد» له نصوصًا

أدبية، فأجبته، ثم استنكرت أسئلته التى لا تتطلب ذكاءً ولا إعمالًا للعقل وللخيال، فأجاب بأنه لاحَظ أننى أميل للتجريد والتعميم (أى أميل للخروج بقوانين عامة)، وأن نظرتى لنسيج الأعمال الأدبية قاصرة، كان ردى أننى لا أتعامل مع العموميات وحسب، وإنما **أتعامل مع العام فى علاقته بالخاص**، فقال إنه يجب عدم التعميم على الإطلاق فى الدراسة الأدبية.

لم تكن المناقشة ودية على الإطلاق، ولعله كان يتوقع من طالب دراسات عليا مثلى (من إفريقيا!) أن **يذعن تمامًا لآرائه**. وقد وقع اختياره على أحد زملائنا وألحقه بجامعة كمبردج، وهناك قام «بتسويته» تمامًا، «وتبطيطه»، إذ طلب منه أن يقرأ فى كل شىء تقريبًا. **والشهوة المعلوماتية هذه عندما تنهش إنسانًا تجعله يقرأ كل شىء حتى يعرف كل شىء وينتهى الأمر بالمسكين أنه لا يعرف أى شىء! فالحقيقة غير جمع الحقائق.**

بدلًا من إنجلترا، ذهبت إلى **الولايات المتحدة** للدراسة عام 1963، وفى البداية قضيت شهرًا فى **جامعة ييل** Yale. عند وصولى عقدوا للطلبة الدارسين امتحانًا «موضوعيًّا ذا اختيارات متعددة» multiple choice تكون فيه الإجابة إما بنعم أو لا لتحديد مستواهم الثقافى واللغوى. وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة أو الذكية لا هى بنعم ولا بلا، وإنما تقع بينهما، وكانت النتيجة رسوب لا نظير له، لذا قرروا أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق ببرنامج الدراسات العليا. ونظرًا لثقتى بنفسى **أخبرتهم أن الخلل ليس فيّ وإنما فى الامتحان**، فهو امتحان سخيف لا يقيس قدرات الطالب الحقيقية وإنما سرعة بديهته واستجابته، وأكدت لهم أن أدائى بعد أن عرفت «الطريقة» أو «الحيلة» سيكون مختلفًا تمامًا، وجربوا معى مرة أخرى، فحصلت على أعلى درجة بين المتقدمين. وكانت هذه من أولى المواجهات بينى وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وخيلائها.

ثم ذهبت إلى نيويورك والتحقت بجامعة كولومبيا وهى جامعة كبيرة جدًّا، تضم بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزى فى العالم. كنا نهرول من حجرة إلى أخرى ونقرأ بشراهة ونتحدث بسرعة. وكان الطلبة يتحدثون بلغة معقدة للغاية، وكذلك الكتابات النقدية الأمريكية كُتبت بلغة معقدة، كل كاتب له مصطلحاته الخاصة. ظننت لوهلة أننى لا أعرف اللغة الإنجليزية بما فيه الكفاية، إلى أن حضر الأستاذ بازيل ويلى Basil Willey، مؤرخ الأفكار البريطانى الشهير، فأخبرته عن مشكلتى مع لغة زملائى وأساتذتى وعن إحساسى بعجزى وجهلى، فضحك كثيرًا وأخبرنى أنه هو نفسه يجد صعوبة أحيانًا فى فهم الأساتذة الأمريكيين، وطمأننى إلى أن ما أواجهه قد واجهه الكثيرون من قبلى!.

فى بداية الأمر **أحسست برهبة موقفى**: الطالب العربى الوحيد، يدرس على يد بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزى فى العالم. وحينما أعطونى قوائم النصوص التى يجب أن أقرأها والمراجع التى يجب أن أعود إليها وجدتها طويلة بشكل لا يُصدق. وبمقدرة الدمنهـورى على البقاء، اسـتأجرت وزوجتى غرفة فى فندق رخيص قذر، وبرغم أن الفندق كان يبتلع أكثر من نصف مرتبى، فإنه كان يقع بجوار مكتبة جامعة كولومبيا، **مما مكننى من التفرغ تمامًا للقراءة والتحصيل**. وخرجت من فترة «الحَضانة «هذه وقد تملكت ناصية الخطاب النقدى، واكتشفت أن الآخرين قد اكتفوا بقراءة الملخصات أو ما درسوه فى مرحلة الليسانس، فذاع صيتى لدرجة أننى بدأت إلقاء الدروس الخصوصية على أصدقائى. وفى الامتحان النهائى للماجستير **كانت تقديراتى مرتفعة للغاية**، حتى إنهم أعادوا تصحيح إجاباتى وتأكدوا أننى أستحق الدرجة التى حصلت عليها.

انتقلت إلى جامعة رتجرز بولاية نيوجيرسى للحصول على الدكتوراه، وحصلت هناك على وظيفة مساعد باحث، وهى تعادل وظيفة المعيد.

وكان يُترك للمعيدين تحديد الطريقة التى يُدَرِّسون بها المقرر التمهيدى للغة الإنجليزية، فأعلنتُ عن مقرر بعنوان «مفهوم الشر فى الأدب»، ندرس فيه تطور **مفهوم الشر** فى الأدب الإنجليزى من خلال نصوص أدبية إنجليزية مختلفة، وبذلك نُعرِّف الطالب بتاريخ الأفكار وتاريخ الأخلاق، وفى الوقت نفسه ندربه على كيفية قراءة النصوص. وكانت مفاجأة للجميع أن وافق معظم المعيدين على اقتراحى وتكونت بالفعل «مجموعة الشر» evil group كما كانت تُسمَّى، وتمتع الطلبة بالمقرر أيما تَمَتُّع. وكان هذا إشارة إلى **أن ما يسود من تقاليع ربما لا يكون بالضرورة تعبيرًا عن رغبات الناس وتطلعاتهم الحقيقية**، وهذه حقيقة مهمة لا بد من تذكرها فى عصر الإعلام والموضات المتلاحقة.

وللحصول على الدكتوراه فى الولايات المتحدة ينبغى دراسة خمسة مقررات نمتحن فيها **تحريريًّا** ثم **شفويًّا** قبل السماح لنا بتسجيل رسالة الدكتوراه. ولتغطية المواد التى اخترتها كان **مطلوبًا** منى أن أقرأ حوالى خمسمائة صفحة فى اليوم (وهذا هو الجنون بعينه) مما لا يسمح بأى إبداع حقيقى. فطلبت من أستاذى المشرف ألا أدرس أكثر من ثلاثة مقررات فى الفصل الدراسى الواحد، وتمت الموافقة على طلبى من قِبَل لجنة الدراسات العليا (ربما رأفة بهذا الطالب المصرى الجديد الوحيد). وبعد أن حصلت على درجة الامتياز فى كل المواد فى الفصل الدراسى الأول، كنت أذهب إلى من أعرفهم من الأساتذة، وأخبرهم بأنه بات من الواضح للجميع أننى طالب متميّز، وإننى لم أحضر من مصر للتسلية، ثم أُردف قائلًا **إن نظام الدراسات العليا فى الولايات المتحدة يناسب الطالب المتوسط ولا يسمح بأى شكل من أشكال التميُّز**. وكثيرًا ما أقنعت الأساتذة بأن يعطونى تقدير امتياز دون أن أُقِّدم ورقة بحث، مقابل كلمة شرف بأننى سأقدِّم البحث فيما بعد، بعد

كتابته فى هدوء وسكينة، وهذا ما كنت أقوم به بالفعل. حاولت أن أطبِّق نفس السياسة مع إحدى طالبات الدراسات العليا فى مصر، فما كان منها إلا أن تناست الموضوع تمامًا بعد أن أعطيتها تقديرًا عاليًا!.

بعد الانتهاء من المقررات كان عَلَيَّ اجتياز الامتحان الشفوى الشامل. وجاء الممتحنون الخمسة، يمثل كلٌ منهم تخصصًا من التخصصات الخمسة التى اخترتها. طلب منى أحدهم أن أضع وصفًا لمقرر لدراسة تاريخ النظرية النقدية الأدبية. كنت أعرف أنهم يريدوننى أن أبدأ بأرسطو أو أفلاطون، ولكننى قررت أن أصدمهم فقلت: الجُرجانى، **لأذكرهم بهويتى - دمنهورى مصرى عربى مسلم يطل عليهم كأحد علماء الأنثروبولوجيا ويدرس حضارتهم دون أن يكون جزءًا منها** - فسألونى من عسى أن يكون الجُرجاني؟ فقلت لهم إنه ناقد عربى كلاسيكى مهم، وصاحب نظرية نقدية رائدة. فقالوا: «حسنًا لو كنت فى الولايات المتحدة ماذا كنت ستفعل؟» فتنطعت وقلت: «أنا لا أنوى البقاء فى الولايات المتحدة تحت أية ظروف». قالوا: «فلنفترض ذلك». فابتسمت وقلت: «حسنًا، لو افترضنا ذلك وهو أمر صعب بعض الشىء عَلَيَّ فإننا سنبدأ ولا شك بأرسطو». المهم بعد هذه المعركة الكوميدية المفتعلة الأولية، أصبح الأساتذة الممتحنون طوع يمينى تمامًا، فقد بيَّنت لهم حدود معرفتهم وجهلهم تمامًا بخلفيتى الثقافية، وانتهت المعركة بأن أعطونى درجة الامتياز With Distinction، وكانت أول مرة فى تاريخ قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بالجامعة تُمنح هذه الدرجة. ولنقارن هذا بما يمكن أن يحدث لمن يتحدى أساتذته فى إحدى الجامعات المصرية، مصيره هو التحطيم الكامل مدى الحياة بلا هوادة ولا رحمة.

وإذا كانت ثقتى بنفسى قد أنقذتنى من التهلكة عدة مرات، فإننى كنت أرى عدم الثقة وهى تصرع بعض أصدقائى. كان لى فى الولايات

المتحدة صديق ذكى إلى أقصى درجة، ومرة ذهبت لزيارته فوجدته مبتئسًا لأنه عاجز عن كتابة بحث مطلوب منه عن حوارات أفلاطون، فطلبت منه الأوراق التى كتبها فوجدت بحثًا ممتازًا فأخذت منه الأوراق بحجة أننى أريد قراءتها بتمعن فى المنزل، وأرسلتها لأستاذه الذى منحه درجة الامتياز. تَعجَّب صاحبنا مما حدث، فقد كان متخصصًا فى الإقلال من حق نفسه.

*** التاريخ العـربى والثقة بالنفس**

والتاريخ العربى ملىء بوقائع تبين مدى أهمية الثقة بالنفس؛ روى المؤرخون العرب أن التتار كانوا يدخلون فى حرب نفسية مع الشعوب التى يغزونها فيقومون ببث جواسيس لهم بين الجماهير لتحطيم روحهم المعنوية عن طريق نشر الإشاعات عن قوة التتار ومدى بطشهم. ولذا حينما كان التتار يدخلون إحدى المدن كان سكانها يفرون، أما من بقى منهم فقد بقى جسدًا دون روح. وقد روى أحد المؤرخين أن جنديًا تتريًا أراد أن يقتل عربيًّا، ولكنه لم يجد سيفًا فطلب من العربى أن ينتظره حتى يحضر السيف ويعود، فظل العربى واقفًا إلى أن جاء الجندى وقام بذبحه.

هذا يقف على النقيض مما فعله قُطز، سلطان مصر فى العهد المملوكى. فقد أرسل له ملك التتار رسالة يطلب منه الاستسلام، ولكنه بدلًا من ذلك قطع رءوس الرُسل وعلقها على بوابات القاهرة، فاستعاد المصريون الثقة فى أنفسهم وهزموا جيوش التتار فى عين جالوت، وأوقفوا هذا الوباء الذى كان يريد تحطيم كل الحضارات الإنسانية.

وفى كتابى عن الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية، أبيِّن كيف أن احتدام الأزمة داخل الكيان الصهيونى وتزايد ثقة الفلسطينيين بأنفسهم

خاصةً بعد انتصار حزب الله فى جنوب لبنان هو الذى أدى إلى اندلاع انتفاضة الأقصى. هذا لا يعنى أن الثقة بالنفس وحدها هى السبب فى الانتفاضة، ولكنها ضرورية لها. وكما يقولون بالإنجليزية necessary but not sufficient؛ ضرورية ولكنها ليست كافية.

الثمرة الرابعة والثلاثون...

لا تَدَع المعارك الصغيرة تستنزفك وتحيد بك عن الهدف

بعد أن انتهيت من المقررات والامتحان الشفوى الشامل وأثبت جدارتى الأكاديمية، حان وقت كتابة رسالة الدكتوراه. كان قسم الأدب الإنجليزى قد بدأ تجربة جديدة، وهى أن يُعفَى الممتازون من الطلبة من كتابة الرسالة، على أن يكتفوا بثلاث رسائل قصيرة، وقد قبلت أن أخوض هذه التجربة.

ولكن، تضخمت رسالتى الأولى، التى كان من المفروض ألا تتجاوز مائة صفحة، إلى أن وصلت خمسمائة، فأصبح من الحتمى أن أترك النظام الجديد وأتبع النظام القديم. وقد كان هذا لحسن حظى، **فالبيروقراطية الأكاديمية فى مصر** كانت سترفض معادلة درجتى العلمية، وستعلن أننى فشلت فى الحصول على الدكتوراه! (ولا بد أن أشير إلى أن البيروقراطية الأكاديمية فى الولايات المتحدة كانت تسأل المتقدم لشغل وظيفة ما عن تخصصه الدقيق، وحينما كان يذكر أنه كتب ثلاث رسائل قصيرة كان طلبه يُرفض!).

بدأت كتابة رسالتى للدكتوراه يوم 9 يونية عام 1967، وحين أدركت حجم الكارثة «النكسة» التى حاقت بنا قررت قطع بعثتى حتى أعود لمصر لأساهم فى إعادة بناء الوطن الجريح. ثم أعدت التفكير وفضلت أن أقدم رسالتى للدكتوراه على أن أرفض الحصول عليها بعد مناقشتها وإقرارها احتجاجًا على السلوك الأمريكى تجاه مصر وكذلك فى فيتنام. ثم فكرت فى

مصيرى فى مصر بعد العودة، كانوا سيقولون: «لقد فشل، وهو يغطى فشله بمسألة الاحتجاج». وعبثًا كنت سأحاول الدفاع عن نفسى، ثم سأحاول الحصول على الدكتوراه فى مصر، وسأدخل فى متاهات تعطلنى عن مشروعى الفكرى الذى كنت أود التفرغ له. فعدلت عن قرارى الثورى (ولم أندم على ذلك فيما بعد).

لذلك، أنصح أصدقائى وتلاميذى دائمًا أن يبتعدوا عن المعارك الصغيرة التى تُفرَض عليهم، والتى يمكن أن تستنزف الإنسان بل وتقضى عليه. ومصر الآن عامرة بالمعارك الصغيرة فى كل مكان، وقانا الله وإياكم شرها!.

الثمرة الخامسة والثلاثون...

أنظر حولك وتفاعل ولا تفقد ذاتك

كان القسم فى جامعة رتجرز صغيرًا إلى حدٍّ كبير، كنت أنظر من حولى وأتفاعل ولا أفقد ذاتى. فلنأخذ على سبيل المثال «طريقة التحية»: نحن فى مصر نصافح النساء والرجال ولكن لا نقبِّل إلا الرجال (على الوجنتين) ممن تربطنا بهم علاقة حميمة للغاية. أما فى الولايات المتحدة، فتعلمنا أن تقبيل الرجال له مغزى جنسى، أما تقبيل النساء على الوجنتين فهو من قبيل التحية (وعدم التقبيل يُعدُّ من سوء الخلق!)، وكان علينا تبنى هذه الطريقة. وحينما حضر أستاذى إلى مصر قبَّل زوجتى وقبَّلت زوجته، ضحكت كل الطالبات فى الكلية، وكان على أن أشرح لهن المضمون الاجتماعى للتحية. وحينما أقابل سيدة ما أتأكد من جنسيتها أولًا ثم أصافحها حسب خطابها الحضارى حتى لا أقع فى خطأ حضارى جسيم.

ولكننى مع هذا **لم أكن متلقيًّا سلبيّا لمقاييس المجتمع الأمريكى**. فقد اكتشفت، على سبيل المثال، أن كثيرًا من عبارات التحية التى نستخدمها

بالعربية لها وقع مختلف بالإنجليزية، فمثلًا العبارة التى نقولها بالعامية المصرية «واحشنى I miss you» تحمل إن قلتها لشخص من نفس الجنس فى أمريكا إيحاءات جنسية، فاللغة الإنجليزية لغة تم ترشيدها تمامًا، ومن هنا لا بد للمتحدث أن يكون مقتصرًا للغاية فى التعبير عن عواطفه. لقد وجدت أننى لو استسلمت للغة الإنجليزية لضاعت منى لغة العواطف القوية، ولذا كنت أستخدم العبارة التالية: «كما نقول بالعربية، لقد افتقدتك»، «As we say in Arabic, I miss you»، وبذلك أجعل المرجعية عربية، تسمح بالتعبير عن العواطف. وقد وجد الكثيرون فى قسم اللغة الإنجليزية هذه الصياغة اللفظية ممتازة فكانوا يستخدمونها، برغم أنهم أمريكيون، حتى يتحرروا قليلًا من حدود لغتهم الباردة، وحتى يمكنهم التعبير عن عواطفهم.

الثمرة السادسة والثلاثون...

الحرب ضد المؤسسات: ما ضاع حقٌ وراءه مُطالبٌ

من ينشأ فى مجتمع تقليدى يضيق ذرعًا بالمؤسسات العامة، فالمجتمع التقليدى مكوَّن من شبكة واسعة من العلاقات العائلية وعلاقات الجيرة، ولذا لا يتعامل الإنسان إلا مع من يعرفهم ويعرفونه. أما **المؤسسة بالمعنى الحديث**، فهى كيان خاضع لقوانينه وإجراءاته الخاصة، **وليس له مرجعية إنسانية أو أخلاقية أو دينية**، تتحرك كالوحش الكاسر أو كقوة من قوى الطبيعة، تحطم كل ما يأتى فى طريقها، **فالمقدرة على الاستمرار والبقاء هى القيمة المطلقة الوحيدة بالنسبة لها والتى تَجُبُّ أى اعتبارات إنسانية وأخلاقية**.

وحين تخرجت فى جامعة الإسكندرية، حدث **أول صدام حقيقى لى مع المؤسسات العامة**. فقد فوجئت أن كل البعثات كانت تُمنح لخريجى

جامعة القاهرة وعين شمس، ونُحرم نحن منها فى الإسكندرية، ذلك لأن بالجامعتين قسماً متميزًا يُسمى قسم الامتياز، وله أولوية فى البعثات، وليس له نظير فى جامعة الإسكندرية، حتى إن إحدى خريجات جامعة عين شمس حصلت على بعثة جامعة الإسكندرية بالرغم من أن مجموعها الكلى أقل منى بحوالى 20 درجة.

أخبرنى مدير **إدارة البعثات** أنه لا بد من استخراج حكم من مجلس الدولة، بعد استصدار قرار من المجلس الأعلى للجامعات يبين أن الليسانس العادية من جامعة الإسكندرية تعادل الليسانس الممتازة من جامعتى القاهرة وعين شمس. فقضيت عدة شهور فى الانتقال من الإسكندرية إلى القاهرة لجمع الأوراق اللازمة ثم قدمتها للمجلس الأعلى للجامعات واستصدرت القرار وأخذتُه لمجلس الدولة الذى أصدر حكماً لصالحى. فأخذت الحكم وذهبت لإدارة البعثات لتنفيذه، ولكنى وجدت مديرًا جديدًا، من البحيرة، أى «بلدياتى»، صديق حميم لعمى، وأعطيته حكم مجلس الدولة، وإذ بى أفاجأ بأنه يرفض تنفيذ الحكم لأنه لا يحب أن يغير الإجراءات، كدت أبكى من فرط الحزن. **لم تفتر عزيمتى** واستمرت حربى ضد المؤسسات، فقام أصدقاء لى يعملون فى الصحافة بنشر تفاصيل القضية وحكم مجلس الدولة فى الصحف، فوجَدَت وزارة التعليم العالى نفسها موضعًا للتشهير الذى يستند إلى حقائق، عندها اجتمعت اللجنة العليا للبعثات وقررت منحى بعثة خاصة بكلية البنات (كان من المفروض أن تكون مقصورة على الإناث ولكنهم نسوا أن يكتبوا هذا الشرط فى الإعلان).

وكانت لى **حربًا ضد الرأسمالية العالمية** متمثلة فى شركة **أميركان أكسبريس** التى قامت بشحن كتبى من الولايات المتحدة إلى مصر بعد انتهاء البعثة. لقد كلفنى الشحن أضعاف ما أخبرنى به موظف الشركة، كما رَفَضَتْ تعويضى

عن تلف أصاب ثلاجتى التى شحنتها بدعوى أن تأمينى يغطى الـ total loss أى الخسارة الكاملة وليس الـ partial loss أى الخسارة الجزئية. استشطت غضبًا وحسبت ما خسرت سواء من جراء شحن وتخزين أمتعتى فى نابولى، وكذلك من جراء العطب الذى أصاب الثلاجة، وأبلغت قسم شرطة سابا باشا عن فقدان أحد الأجهزة الكهربائية الأخرى (وكان ثمنه يعادل تمامًا كل ما خسرت)، وأرسلت صورة من المحضر لشركة أمريكان إكسبريس. وبالفعل بعد شهرين أو ثلاثة وصل إليَّ منهم شيك بالمبلغ الذى عوضنى عما فقدت من مال، وهكذا **كسبت «حربى الخاصة ضد الرأسمالية العالمية»**.

وتقوم **بلدية مدينة فيش كيل** Fish Kill فى ولاية نيويورك بالتحايل لجمع الغرامات عن طريق وضع رادار لقياس سرعة السيارات فى منطقة جبلية منحدرة تقع خارج المدينة. وبما أن التحكم فى السرعة فى مثل هذه المنطقة مسألة صعبة للغاية، فإن الكثيرين يجدون أنفسهم مرتكبين لجريمة مخالفة ويضطر السائق إلى دفع الغرامة، وهذا ما حدث لى عام 1976. قررت أنا الآخر أن أتحايل، وكتبت لهم خطابًا على الورق الرسمى لوفد الجامعة العربية لهيئة الأمم (حيث كنت أعمل مستشارًا ثقافيًا) أخبرهم فيه بأننى لم أذهب ألبتة لمدينة فيش كيل هذه، فكيف يمكن أن أكون قد ارتكبت مخالفة مرورية فيها؟ وختمت الخطاب بقولى أننى قد اضطر لإبلاغ حكومتى، وأن هذا قد يسبب أزمة دبلوماسية بين بلدينا (وهذه طبعًا أكاذيب، فأنا لم أكن دبلوماسيًا، كما أننى لا أعتقد أن واقعة مثل هذه يمكن أن تؤدى إلى أزمة بين مصر والولايات المتحدة أو حتى جمهورية لوكسمبورج!). من الواضح أن مجلس مدينة فيش كيل أصيب بالهلع، إذ وصلنى خطاب طُبع على ورق خاص يعتذرون فيه لما بدر منهم، ولم تحدث الأزمة الدبلوماسية التى هددتهم بها.

ومغامراتى مع **شركة مصر للطيران** كثيرة. ذات مرة أخبرنا مدير مكتب الشركة فى عمان، وكان فرعونًا صغيرًا، أن الطائرة لن تحضر من القاهرة فى موعدها وأن علينا الانتظار للغد، وأشار بطرف أصابعه إلى كراسى المطار وقال: يمكنكم النوم عليها، فقلت له: إن هناك قوانين عالمية تنظم هذه العملية، وإن عليه أن يحجز لنا فى أحد الفنادق إن كان يريد أن ننتظر طائرة الصباح، فقال إن ثمن التذكرة لا يغطى ثمن الفندق، فأخبرته إن هذه هى مشكلته وليست مشكلتى. ثم طلبت من كل المسافرين أن يوقعوا على عريضة شكوى وأن يكتب كل شخص رقم جواز سفره إلى جوار توقيعه، لأننى سأشكو لهيئة الطيران العالمية المختصة. وبقدرة قادر **تحول الفرعون الصغير إلى «مهرج» مذعور** وجلس يسترضينى، وأمر للمسافرين بعشاء مجانى، ثم اتصل بالقاهرة فأرسلوا الطائرة!.

إلى الطيور المهاجرة العائدة وإلى الباحثين عن النجاح

الذئاب الثلاثة

الثمرة السابعة والثلاثون...

وضوح الهدف والاندماج فى المجتمع

حينما عدت إلى مصر من الولايات المتحدة عام 1969 بعد حصولى على الدكتوراه، **كنت ممتلئًا ثقة بمقدرة الإنسان على تغيير واقعه وإقامة العدل فى الأرض**. كما كان عندى مشروعى الفكرى الواضح: أن **أصبح ناقدًا أدبيًا يربط الأدب بتاريخ الفكر، وتاريخ الفكر بالتطور الاقتصادى فى المجتمع**، ويحاول أن يحل معضلة **علاقة البناء التحتى (الاقتصاد) بالبناء الفوقى (الفكر والأيديولوجيا)**.

وحين عدت من الولايات المتحدة **كنت أصبو لتحقيق متتالية من ثلاثة عناصر: أن أكون ناقدًا أدبيّا، وأستاذًا جامعيّا، وأبًا وزوجًا متميزًا**، فإن أخفقت فلأكن أستاذًا جامعيًّا وأبًا وزوجًا متميزًا، فإن أخفقت فلأكن أبًا وزوجًا متميزًا. وغني عن القول أن مسار حياتى كان مختلفًا عن «خطتى» (فلم أصبح ناقدًا أدبيًّا ولم أستمر فى التدريس فى الجامعة، ولا أدرى هل كنت أبًا وزوجًا متميزًا أم لا، ولأترك الحكم لأولادى وزوجتى). أى أننى **كنت مستعدًا لقبول حدودى الإنسانية واحتمالات الانتصار والانكسار**.

وعند عودتى إلى مصر، **حاولت قدر استطاعتى أن أندمج فى المجتمع**، أى أن **أعود له بالمعنى الأخلاقى والحضارى، لا بالمعنى المادى وحسب**. فكنت أحاول تحاشى الحديث باللغة الإنجليزية قدر استطاعتى خارج منزلى (أما فى المنزل، فكنا نحاول التحدث بالإنجليزية حتى أحتفظ بلياقتى اللغوية كأستاذ للأدب الإنجليزى). وكنت أدخن البايب، فقررت استبعاده من حياتى، أما السيجار فأنا لا أدخنه إلا نادرًا. وكنت أحب ارتداء الشورت فى الصيف، ولكننى أردت أن أعرف استجابة المجتمع لهذه العادة، فلبست الشورت يومًا وسرت فى السوق، وطلبت من أحد العاملين فى منزلى أن يسير على مقربة منى، ويخبرنى بانطباعات الناس، أى أننى قمت بـ«بدراسة ميدانية على الطبيعة لاستجابة المصريين العاديين للشورت»، كنت أنا فيها الملاحِظ والملاحَظ. ولم تكن الانطباعات إيجابية، ولذا قررت ألا ألبس الشورت إلا فى منزلى.

الثمرة الثامنة والثلاثون ...

ذئب الثروة: لا تجعل المال هدفًا فى حد ذاته

عند عودتى إلى مصر كان التكيف السلوكى من أسهل الأمور، إذ كانت هناك معركة أخرى أهم دارت داخلى، فقد هاجمتنى ثلاثة ذئاب شرسة

(هكذا أسميها) ظلت تنهشنى بعض الوقت: **ذئب الثروة وذئب الشهرة والذئب الهجيلى المعلوماتى.**

أما الذئب الأول فهو ذئب مادى (خارجى)، وهو ذئب الثروة الذى يعبِّر عن نفسه فى **الرغبة العارمة فى أن أكون ثريًا.** فقد أتيت من عائلة تجارية، مصدر الشرعية فيها هو الثروة، وإن لم يحققها المرء. انتابته المخاوف واهتزت ثقته بنفسه. ولكن **كان من السهل عليّ أن أتغلب على هذا الذئب،** وأن أقرر أن مشروعى الفكرى ربما لا يأتى بالثروة ولكنه سيأتى بالحكمة، وأن أسلوب حياتى بما فيه من آفاق ثقافية واسعة وعلاقات إنسانية دافئة أفضل بكثير من حياة التراكم الرأسمالى (ولعل هذا جزء من ميراث أمى ومجتمع دمنهور التراحمى).

ومما ساعدنى على اتخاذ قرارى أننى لاحظت أن أبناء الأسرة حينما كانوا يحضرون إلى منزلنا كانوا يرفضون العودة إلى منازلهم، إذ كانوا يسعدون كثيرًا بأسلوب حياتنا. فقد كنا نأخذهم إلى الحدائق القليلة المتبقية فى القاهرة، كما كنا نزور آثار القاهرة الإسلامية والقبطية والفرعونية، غير الرحلات الشراعية فى النيل. فأسلوب حياتنا كان يشعرهم بالامتلاء، ويشعرنى فى الوقت ذاته بأن ذئب الثروة لا يمكنه أن يمنحنى كل هذه الأشياء.

لقـد **أصـبح هدفى هو أن أحقق ذاتى حسب الشروط التى تمليها رؤيتى لذاتى،** وأن أُحَصِّل من المال ما يكفى لأن يحقق لى شيئًا من التحرر من تفاصيل الحياة اليومية ولأن أُموّل حياتى الفكرية وأنجز مشروعى المعرفى. ولذا أردد دائمًا **أن المال يشكل عبئًا على البعض، يفنون حياتهم فى جمعه، أما بالنسبة لى فالمال حرية.**

وقد نجحت إلى حدٍّ كبير فى توظيف المال بدلًا من أن يوظفنى. فلم

أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشروعى الفكرى أو يعوقه. وقد نجحت فى أن تكون محاضراتى فى كلية البنات جزءًا من حوارى الفلسفى مع نفسى. ولم أشغل قط أى منصب إدارى من أى نوع طيلة حياتى. وعندما عملت مستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك عرض على أن أعمل فى هيئة الأمم المتحدة براتب ضخم، لكنى آثرت البقاء فى وظيفتى والتضحية بالراتب الضخم لأن الوظيفة الجديدة كانت ستستوعب كل وقتى، كما كانت تتعارض كليةً مع مشروعى الفكرى.

هذا لا يعنى أننى لم أعرف شظف العيش. فحينما ذهبنا إلى الولايات المتحدة عام 1963 اضطررنا إلى أن نعيش أنا وزوجتى فى فندق رخيص قذر. وفى الشتاء اضطررنا إلى شراء معاطف مستعملة، كما كنا نضطر للسير مسافات طويلة فى البرد القارس والثلج، للوصول إلى الأتوبيس. كما اضطرت زوجتى إلى أن تعود من المستشفى إلى المنزل بعد أن وضعت نور بأربعة أيام فى مترو الأنفاق فى نيويورك (وكان طريقة متوحشة للمواصلات فى الستينيات)، كما كانت تحمل ابنتنا فى المواصلات العامة وتذهب بها من نيوجرسى إلى نيويورك للتمتع بالخدمة الطبية المجانية بعد الولادة.

ولم أترفع قط عن القيام بأى عمل، فقد عملت عضوًا فى فرقة مكافحة الحريق **بمصنع الكابلات** فى نيو برونزويك. وقد استأجرنا المصنع لا لمكافحة الحريق وإنما ليخبر شركة التأمين بذلك، لتخفيض أقساط التأمين. وقد رُقيت إلى أن أصبحت رئيسًا للفرقة، فعينت كل أصدقائى من طلبة الدكتوراه ليعملوا أعضاء فيها. وكان مدير المصنع يتباهى بأن فرقة مكافحة الحريق فى مصنعه تتمتع بأعلى مستوى تعليمى فى العالم، وكان محقًا فى تباهيه هذا.

ومما ساعد على ترويض ذئب الثروة، أن **زوجتى لم تراودها أحلام الثروة**

ولم تعان من أى نزعات استهلاكية، فهى مصابة بحساسية من نوع فريد، إذ يصفر وجهها وتعطس حينما تمكث مدة طويلة داخل أحد المحلات، وهى حساسية يحسدنى عليها كثير من الأزواج المصريين، واقترح علىَّ أحدهم أن أقرضه الفيروس العظيم الذى يتسبب فى هذه الحساسية المباركة.

وحينما انتهيت من الموسوعة اكتشفت أننى وزوجتى لم نتناقش قط فيما كنت أدفعه من تكاليف، كما أنها وافقت على قرارى بالاستقالة من الجامعة لإتمام الموسوعة بعد مناقشة دامت خمس دقائق، رغم ما كان يعنيه ذلك من أن **الأسرة ستصبح دون دخل ثابت**. وبعد حرب الخليج، حينما أصبح من حقى العودة لوظيفتى بالكويت ناقشنا الأمر لبضع دقائق أخرى ووجدت أنه لا بد من الاستمرار فى التفرغ لأنهى الموسوعة.

وكنت **أموِّل كل أعمالى الفكرية تقريبًا**، بينما العائد المالى لمثل هذه الأعمال ضئيل للغاية. وكما قال أحد الناشرين لصديق أفنى عمره فى إعداد موسوعة عن الموسيقى، وهو يعرض عليه ألف جنيه لا أكثر: «**لكم المجد ولنا الثروة**»!.

الثمرة التاسعة والثلاثون ...

ذئب الشهرة: ويل للمرء الذى يربح كل شىء، ويخسر نفسه.

أما الذئب الثانى، فهو نفسى، وهو ذئب الشهرة الذى يُعبِّر عن نفسه فى **الرغبة العارمة فى أن أصبح من المشاهير**.

حينما عدت للمرة الأولى من الولايات المتحدة الأمريكية لم أواجه ذئب الشهرة، فقد **وجدت نفسى مشهورًا**، أكتب فى الأهرام وأتحدث فى الإذاعة والتليفزيون ومسئولاً عن وحدة الفكر الصهيونى فى مركز الدراسات

السياسية والإستراتيجية. وكان كل ما كنت أكتبه يجد طريقه للنشر فى إحدى المجلات، وكلما شُكلت لجنة (مثل لجنة إصلاح تدريس اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، أو حتى إصلاح العالم) كنت أجد نفسى عضوًا فيها. ولذا فذئب الشهرة داخلى كان منتشيًا، يغط فى النوم سكران من النشوة.

وقد استيقظ هذا الذئب وبكل ضراوة عام 1979، حينما عدت للمرة الثانية من الولايات المتحدة. كان جو التطبيع سائدًا فى القاهرة، لذلك لم أسترد مكانى فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية. وبدأ بعض المذيعين، ممن كنت ضيفًا دائمًا على برامجهم فى الإذاعة والتليفزيون، يخافون حتى من الحديث معى، بل أننى كنت أجد صعوبة بالغة فى دخول مبنى الأهرام. باختصار شديد، **وجدت نفسى نكرة**، ومن ثم بدأ جوع ذئب الشهرة ونهمه يتزايدان.

ثم دارت المعركة بينى وبين هذا الذئب. فجلست مع نفسى لأكتشف أننى **أحب الشهرة نعم، ولكن رغبتى فى الشهرة نابعة من رغبتى فى حماية نفسى حتى يمكننى الانتهاء من مشروعاتى المعرفية**، فالمشاهير (كما كنت أظن واهمًا آنذاك) لا يُزَج بهم فى السجن ببساطة. كما أن الشهرة ستكون وسيلة ناجعة لإشاعة وتوصيل ما عندى من أفكار أعتقد أن لها قيمة. ولذا إن حاولت أن أشبع ذئب الشهرة داخلى حسب الشروط التى يفرضها العالم الخارجى أكون كمن كسب معركة وخسر الحرب، **وويل للمرء الذى يربح كل شىء ويخسر نفسه. حينئذ أخبرت ذئب الشهرة داخلى أننى لا أمانع فى الشهرة حسب شروطى، تمامًا كما أننى أحب الثروة بمقدار ما تخدمنى.** وهكذا **صرعت ذئب الشهرة داخلى**، وقبلت أن أعيش بعيدًا عن الأضواء، خاصةً حين بدأت فى كتابة الموسوعة بما كانت تتطلبه من عزلة شبه كاملة أحيانًا.

الذئب الهيجلى المعلوماتى: نظرة واسعة بانورامية، ومدققة فاحصة ميكروسكوبية

بقى بعد ذلك أهم الذئاب وأكثرها خطورة وضراوة، وهو الذئب الهجيلى المعلوماتى، وهو ذئب خاص جدًّا، داخلى لأقصى درجة (وهيجل هو فيلسوف ألمانى فى القرن التاسع عشر، حاول أن يقدم إطارًا فلسفيًّا يستوعب كل المعرفة الإنسانية والتاريخ الإنسانى). ويُعبِّر هذا الذئب عن نفسه فى **الرغبة العارمة فى أن أكتب كتابًا نظريًّا يصل إلى أعلى مستويات التعميم والتجريد والشمول (يخرج بنماذج معرفية وقوانين عامة) وفى الوقت نفسه يصل إلى أقصى درجات التخصيص والدقة والتفصيل!** وهذه صيغة مستحيلة، فلا يمكن الجمع بين رؤية بانورامية شاملة متسعة فى غاية الاتساع وتفاصيل دقيقة فى غاية الدقة. وقد صرع هذا الذئب مجموعة من أعز أصدقائى أمام ناظرى، مات بعضهم دون أن يقدم أى فكر.

ويبدو أن هذا الذئب الهجيلى المعلوماتى كان **يطاردنى منذ طفولتى**، فقد أردت أن أقرأ كل ما فى مكتبة البلدية بدمنهور حتى أعرف كل ما خطته يد البشرية!. كما أصبت بصدمة عميقة، حين عرفت أن أحد أساتذتى فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب فى جامعة الإسكندرية، لم يكن قد قرأ الأعمال الكاملة لشكسبير!. وحين بدأت كتابة مقدمة رسالتى للماجستير كنت أريد أن أقرأ كل شىء عن الشعر الرومانتيكى الإنجليزى وكذلك الشعر والأدب العربى قديمه وحديثه!

وهذه الإشكالية لا يواجهها متوسطو الذكاء، فبعضهم يحشد المعلومات التى لا يربطها رابط (أسميها «أفكارًا» وليست فكرًا)، ويَخُطون بضعة كتب

(«يرص كلامًا فوق كلام تحت كلام» على رأى صلاح عبد الصبور) تُنشر مع مئات الكتب الأخرى التى تصدر ويقرؤها البعض ثم تموت، وهم يعيشون حياتهم فى سعادة بالغة ورضا تام!.

*** تحققت المعادلة الصعبة**

كان هذا الذئب يهاجمنى من آونة إلى أخرى أثناء كتابتى عن الصهيونية، ويذكرنى بطموحى فى أن أكتب عملًا نظريًّا كبيرًا وأترك حقل الصهيونية باعتباره حقلًا تخصصيًّا صغيرًا، ولكننى عام 1984 قررت تجاهل الذئب الهيجيلى تمامًا والاستمرار فى الكتابة فى حقل الصهيونية وحسب. والطريف أننى حينما فعلت ذلك تبلورت **فكرة النماذج المعرفية**، وبدأت أحاول الإجابة من خلالها عن التساؤلات الأيديولوجية والفلسفية التى تطرح نفسها عَلَىَّ أثناء دراستى لليهودية واليهود والصهيونية. أى أننى كتبت دراسة تتسم بقدر معقول من **التجريد والشمول** (الخروج بنماذج تحليلية وقوانين عامة = نظرة بانورامية) ومن **التعيُّن والتخصيص** (فهم لليهودية واليهود والصهيونية = نظرة ميكروسكوبية). **وهكذا تحقق الحلم الهيجيلى المعلوماتى (أو بعض جوانبه) دون أن ينهشنى الذئب.**

***